



الإيديولوجيا وبناء النظرية الاجتماعية

رابح بن عيسى

جامعة الوادي

Rabah.benaissa@gmail.com

الملخص -

يعتبر الفكر والمبدأ والعقيدة المرتكزات الأساسية التي تبنى عليها أغلب النظريات السوسيولوجية، إن لم نقل جلها، فالنظرية عند بناءها ووضعها، أو انطلاقها لا بد أن تستحضر كنه وجوهر القضايا وتطلق أحكاما عليها فإن كانت متماشية مع أفكارها طورتها ونمتها، أو عدلت ما تريد منها، وإن كانت على النقيض حاربتها، وناهضتها، وحاولت الرد عليها وتكذيبها، وهكذا أردنا من خلال مقالاتنا هاته أن نبين و نوضح أن علماء الاجتماع في بناء نظرياتهم انطلقوا من أفكار وعقائد ومبادئ في بناء نظرياتهم أو بالأحرى انطلقوا من ارتباطاتهم الايديولوجية وتصوراتهم لهذه الظواهر و القضايا الموجودة في مجتمعاتهم لبناء الإطار العام لنظرياتهم. وسنتحدث عن ثلاثة من رواد علم الاجتماع وهم إميل دور كايم، و كارل ماركس، و ماكس فيبر.

الكلمات المفتاحية-

الايديولوجيا، النظرية الاجتماعية، الأفكار، العقيدة.

Abstract -

Thought, Principle, And The Doctrine Are The Basic Pillars Upon Which Most Of The Sociological Theories Are Built. To Formulate, Set, Or Lanch A Theory Demands You To Bring The Core Issues So As To Declare Provisions On It. If These Issues Were In Line With The Theory Ideas, It Be Grown Up, Developed, Or Adjusted What They From It. If They Were In Contrast With The Theory, It Will Be Fought And Refuted. In This Abstractor Article, We Want To Shons That Social Scientists Started From Ideas, Beliefs And Principles In Order To Set A Theory. In Other Term, They Began From Their Affiliations And Perceptions For The Social Issues To Set The General Frame Work Of Their Theories. We Will Talk About Three Of The Pioneers Of Sociology As Emile Durkheim, Karl Marx, And Max Weber.

Key Words-

The Ideology, Social Theory, Ideas, Creed

الإيديولوجيا وبناء النظرية الاجتماعية

تعريف الإيديولوجيا:

إن الإنسان يتخير الأشياء و يؤول الوقائع بكيفية تظهرها دائما مطابقة لما يعتقد أنه الحق.

تجدر الإشارة إلى أن كلمة الإيديولوجيا هي كلمة دخيلة على جميع اللغات الحية، تعني لغويا في أصلها الفرنسي علم الأفكار، وقد استعارها الألمان وضمونها معني آخر. و العبارات التي يمكن أن تقابلها في اللغة العربية هي منظومة فكرية، عقيدة، دين، فلسفة، ذهنية، مبادئ...⁽¹⁾ ويمكن أن نعطي عدة تعريفات لمفهوم الإيديولوجيا كما يلي:

يعرفها عبد الله العروي: على أنها مجموع القيم والأخلاق والأهداف التي يرجى تحقيقها على المدى القريب و البعيد. ويرى أن النظرة الأيديولوجية، تعني أن المرء يتخير الأشياء و يؤول الوقائع بكيفية تظهر دائما مطابقة لما يعتقد أنها الحق⁽²⁾. ويرى العروي أن الفكر الإيديولوجي يتعارض مع الفكر الموضوعي ذاك الأول الذي يخضع للمحيط الخارجي، فيتشبع بقوانينه وأفكاره، ويسير على نهجه.

تعريف التوسير Althusser: الايديولوجيا هي نظام من التخييلات والأساطير والأفكار والتصورات التي تملك وجودا ودورا تاريخيا في المجتمع، وهي تتميز عن العلم من خلال تفوق وظيفة الممارسة الاجتماعية فيها على الوظيفة المعرفية. إن الايديولوجيا تشكل جزءا لا يتجزأ من هذا الكل الاجتماعي⁽³⁾.

تعريف روكيتش Rokeach: نظام من المعتقدات والاتجاهات ذات طبيعة دينية أو سياسية أو فلسفية، والذي ينشأ عن سلطة خارجية⁽⁴⁾.

تعريف كوربيت Corbett: تلك البنى الفكرية التي تحتوي على مجموعة من المعتقدات، حول طبيعة الإنسان، والعالم الذي يعيش فيه ودعوى التوافق بينهما، والمطالبة بمزاولة وممارسة هذه الاعتقادات والتسليم بذلك من قبل كل من يحسب على العضوية الكاملة لجماعة ما⁽⁵⁾.

الخلفية الإيديولوجية للنظرية السوسيولوجية عند دوركايم:

يشير بعض نقاد النظرية السوسيولوجية مثل أرفين زيتيلين إلى أن تفهم النظرية عند زعيم المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع يتطلب معرفة موقف ذلك المفكر من الفكر والتيارات السياسية في عصره خاصة الاشتراكية، فقد اهتم بها وبمشكلاتها وهو في 25 من عمره⁽⁶⁾.

ثم تحول اهتمامه من الاشتراكية إلى علم الاجتماع ثم إلى المشكلات الاجتماعية، لكن دوركايم كما أشار مارسيل موس لم يتخل عن منطلقاته الفكرية الأولى المناهضة للفكر الماركسي و الاشتراكي فقد حاول أن يعالج قضية الاشتراكية من المنظورين الموضوعي والسوسيولوجي، وقد اهتم منذ البداية بتحليل مختلف العوامل والدوافع والظروف التي أدت إلى ظهور الفكر الاشتراكي في العالم الغربي⁽⁷⁾.

كان دور كايم يكن عداء شديدا للفكر الاشتراكي _ على حد قول زيتيلين _ بالرغم من إيمان بعض أصدقائه بالفكر الماركسي. و يقول موس في هذا الشأن أن أكثر جوانب الاشتراكية بغضا لدى دوركايم هو الجانب الطبقي، أو تركيزها على التحليل الطبقي وما تتسم به من عنف ثوري، وما ترمي إليه من غايات سياسية⁽⁸⁾.

ونتيجة لهذا الموقف العدائي من الفكر الاشتراكي الماركسي فقد حاول دوركايم أن يقدم بعض الأفكار والتصورات في مواجهة الأفكار و التصورات الماركسية، وهذا ما أقر به العديد من علماء الاجتماع. ففي مقابل تصور بناء المجتمع وتغييره على أساس الطبقة والصراع قدم دوركايم نظريته في التضامن الاجتماعي، تلك النظرية التي تتجاهل إلى حد كبير قضية الطبقات و الانقسام الطبقي والصراع الاجتماعي والاقتصادي داخل المجتمعات.

وهذا ما يدل على أن دوركايم أراد أن يقدم نموذجا مغايرا ومناقضا للنموذج الذي قدمه ماركس للمجتمع و التغيير الاجتماعي والتحول التاريخي، الأمر الذي جعله يستثني و يستبعد في نظريته التدرج الاجتماعي و الانقسام الاجتماعي، ومشكلة القوة والصراع السياسي⁽⁹⁾. وهذا الأمر يعاب على زعيم من زعماء علم الاجتماع بعدم استخدامه للمنهج الموضوعي في معالجة بعض القضايا نتيجة لتمسكه بإيديولوجيته مقابل الأيديولوجيات الأخرى وخاصة الاشتراكية.

وجاءت فكرة التضامن عنده انطلاقا من خوفه من الصراعات الاجتماعية والسياسية التي كانت محتدمة في عصره وخاصة الحركة الاشتراكية وقوتها، وما قدمتها للفكر الاشتراكي من تحليلات سوسيولوجية وحلول مقترحة لمشكلات المجتمع.

كان دوركايم كونتيا غير مستقر و محافظا وقد استعار من فكر سان سيمون، بقول آخر استمد أفكاره من تلك الجوانب المحافظة من فكر سيمون التي تتماشى مع نزعته المحافظة في حين أنه تجاهل الجوانب الراديكالية في ذلك الفكر تلك التي إعتد عليها ماركس لأن سان سيمون أسهم في ظهور فكرين متناقضين (ثوري ومحافظ)⁽¹⁰⁾.

من كل ما سبق يمكن اعتبار أن النظرية عند دوركايم كانت منطلقاتها من الأيديولوجية المحافظة التي كان يتبناها وتتماشى مع نزعته وتنعكس بجلاء الانحياز الإيديولوجي للاتجاه المحافظ وهو الأمر الذي قال به كل جولدنروزييلين.

ومن بين القضايا التي تعكس هذا الانحياز هي قضية الوجود الاجتماعي التي تحدد الوعي الاجتماعي وليس العكس، والذي يفترض فيها دور كايم أنها تلتقي مع النظرية الماركسية. لكن دور كايم كما يرى زيتلين وظف هذه الإدعاءات لهذه القضية خدمة لأهدافه النظرية والتي من بينها محاولة إرجاع الظواهر العقلية والوجدانية عند الإنسان إلى المجتمع وإضفاء طابع الإلوهية عليه، وذلك ضمن استراتيجية شاملة لدعم المجتمع بنظمه وتنظيماته، وفي محاولة منه لمواجهة كافة التغيرات الراديكالية⁽¹¹⁾.

وتظهر كذلك إيديولوجية ونزعتة المحافظة كذلك أثناء دراسته لتقسيم العمل الاجتماعي التي جاءت كرد فعل عن الماركسيين الذين يرون أن ظاهرة تقسيم العمل ونمو العلم والتكنولوجيا وقوى الإنتاج ظواهر حتمية ومستمرة تؤدي إلى حدة الانقسام الطبقي والصراع الاجتماعي والتناقضات الاقتصادية والسياسية والمصلحية داخل المجتمع، حيث اقترح النموذج النموذج الماركسي استحداث تغيرات بنائية في المجتمع وهذه الطروحات لا تخدم أهداف النظرية المحافظة التي نادى بها دوركايم مما اضطره للرد على ذلك. محاولة منه ومن أنصار علم الاجتماع البرجوازي إخفاء ظواهر عدم المساواة والاستغلال والصراع المتزايد في المجتمع الغربي الحديث حسب وجهة نظر الماركسيين⁽¹²⁾.

الخلفية الأيديولوجية للنظرية السوسيولوجية عند كارل ماركس:

نلمس الفكر الإيديولوجي للنظرية السوسيولوجية عند ماركس في الوجه أو البعد السياسي والأكاديمي لأعماله ودراساته، ويتجلى ذلك في كتابيه "البيان الشيوعي" و"رأس المال" الذي أصدرهما رفقة انجلز واللذين مولتهما لجنة أو عصابة من الشيوعيين أو بالأحرى جماعة النورانيين⁽¹³⁾، هذه الجماعة بدون شك تحمل إيديولوجية معروفة وتنطلق من مبادئ وأفكار ومعتقدات تسعى لتحقيقها، فكتاب البيان الشيوعي يطرح قضيتين، قضية نضالية ثورية، وقضية علمية أكاديمية، حيث أن الهدف من إصداره كان سياسيا بالدرجة الأولى خدمة للشيوعية التي تستهدف القضاء ومناقضة الرأسمالية غير أن مضمونه كان سوسيولوجيا. وضح فيه ماركس أن تاريخ المجتمعات ما هو إلا تاريخ الصراع بين الطبقات⁽¹⁴⁾. وهذه الأفكار الثورة و

الصراع _ كما بينها "وليام غي كار" في كتابه "أحجار على رقعة الشطرنج" هي أفكار ومعتقدات جماعة النورانيين اليهودية.

حيث يعتقد ماركس جازما أن التغير الاجتماعي لا يحدث إلا بالصراع الطبقي داخل المجتمع بين طبقتين رئيسيتين إحداهما تمثل نظام الإنتاج البائد - البرجوازية - ، والثانية تمثل النظام الآخذ في التكوين - البروليتاريا - ، وهذه الأفكار تنم عن وجود إيديولوجية إقتصادية سياسية تحرك فكر ماركس و توجهه.

في نقطة أخرى لم يقف ماركس عند وصف وتشخيص و تفسير ما هو كائن، وإنما تجاوزوه إلى تقرير ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع الإنساني، فجاءت دعوته إلى إقامة المجتمع الشيوعي باعتباره المجتمع النموذجي الذي تمحى فيه الطبقات.

يقول ماركس أن ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم بل إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم⁽¹⁵⁾. والتي تؤكد أن الأفكار تمثل منتجا للظروف الاجتماعية، هذه المقولة تعكس فكر و إيديولوجية سياسية إقتصادية متطرفة، بمعنى أنه لا يمكن تغيير مجتمع معين بتغيير أفكاره و ونهجه وخطه أولا، بل يلزم لذلك تغيير الأفراد الذين يحكمون في هذا المجتمع قبل ذلك. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على ضرورة وجود عامل الصراع و الثورة لحدوث هذا التغيير و هو الأمر الذي تدعو إليه الشيوعية.

هناك نقطة أخرى تبين أن للماركسية إيديولوجية تعتمد عليها وهي أنها تعتمد على المنطق الديالكتيكي الذي يعتبر بمثابة المنظار أو زاوية الرؤية التي تتخذها في تفسير الظواهر الاجتماعية و الطبيعية حيث يتشكل هذا المنطق من أربعة أصول وهي أصل التطور، تناقضات التطور، وقفزات التطور، و الارتباط العام.

حيث أنه في أصل التطور أو حركة التطور تلغي الماركسية إرادة الإنسان ويعتبرون التغيير وفق ما يقولون تغييرا جبريا، حتميا، لا إراديا وهي عبارة عن تصورات و تنبؤات و أفكار تأخذ بالاحتمالية التاريخية بدل أخذها بالواقع، وقد فندت هذه الأفكار بسبب إهمال عامل الإرادة، و أن الإنسان لا تجوز فيه الحتمية، ولا تتحكم فيه القوانين المادية⁽¹⁶⁾.

يعتقد ماركس ومن ورائه الماركسيون أن قيمهم ومقاييسهم وأفكارهم هي الصحيحة ولهذا السبب تشكل قاعدة مبررة للنقد الاجتماعي⁽¹⁷⁾.

ورغم أن ماركس اعتقد بأن نظريته لم تكن تحمل ما يجعلها إيديولوجيا، إلا أنه اعتبر عمله كشكل من الفعل السياسي و الأخلاقي، أي التعبير عن الأفكار التي سوف تقود البروليتاريا إلى النصر المحتوم⁽¹⁸⁾.

يقول عبد الله العروي أن الماركسية تمتاز على غيرها من المذاهب بأنها تقدم لنا نظرية عن الادلوجة، إنها تجيب عن السؤال التالي: ما هي الأسباب التي جعلت الفكر الإنساني في كل أدواره يرى الأشياء طبقا لدعواه هو لا طبقا لذاتها هي (الأشياء) في هذا الاستعمال يقابل مفهوم الادلوجة مفهوم الحق: الحق هو ما يطابق ذات الكون، والادلوجة ما يطابق ذات الانسان في الكون⁽¹⁹⁾.

من هنا يمكننا القول أن الماركسية إيديولوجيا بالمعنى الشمولي للكلمة، تعتمد العلم أساسا لها.

الخلفية الايديولوجية لأعمال ماكس فيبر:

يعطي ماكس فيبر إشارة إلى ماهية علم الاجتماع فيقول "بأنه العلم الذي يحاول الوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي، لكي يتمكن من تقديم تفسير سببي لمجراه ونتائجه"⁽²⁰⁾.

هذه إشارة من فيبر على أن عالم الاجتماع يجب أن يتحلى في دراسته للظواهر الاجتماعية بالموضوعية، إلا أن بعض النقاد أعابوا عليه استخدام الذاتية في بعض دراساته للظاهرة الاجتماعية.

ففي دراسته للمذهب البروتستانتي أكد على أهمية هذا المذهب في التأثير العميق و الكبير على صياغة وبناء الروح الرأسمالية في المجتمعات الأوروبية. حيث أكد على أهمية الأخلاق والقيم و المعتقدات والأفكار التي ينشرها المذهب البروتستانتي في سبيل بناء مجتمع قوي ومتماسك. وقد بين الباحث رنهارت بندكس وهو باحث في أعمال فيبر، إلى أن هذا الأخير يرى أن هدف المجتمع الأوروبي المعاصر ليس السعي وراء تحقيق الأرباح بقدر سعيه نحو سيادة الأسلوب الرشيد في الإنتاج ونمو النموذج البيروقراطي داخل التنظيمات الاجتماعية⁽²¹⁾.

وفي هذا الشأن يشير غولدنر إلى أن مسعى فيبر لإعطاء تفسيرات دينية وقيمية لفهم بناء واستقرار المجتمع إنما جاءت محاولة لدحض الفرض الماركسي الذي يقول بسلطة العوامل الاقتصادية في التحكم ببقية العوامل الأخرى ومن ثم التحكم في تشكيل البنية الاجتماعية⁽²²⁾. حيث أعلى فيبر في تحليلاته وتفسيراته من قيمة النظام الديني وما يتمخض عنه من توجيهات قيمية وما يتضمنه من أفكار ومعتقدات كعامل فعال في تحديد طبيعة النظام الاقتصادي من جهة، وكمطلق لفهم بناء المجتمع ونظمه وعلاقاته وتغيره⁽²³⁾.

حيث لم تأتي أفكار فيبر انطلاقاً من موضوعية اجتماعية أو كما يقول بارسونز لتخفيف حدة الحتمية الاقتصادية عند أنصار الماركسية، وإنما جاءت النظرية السوسيولوجية الفيبيرية كما يرى غولدنر من أجل غاية تقديم نموذج تفسيري يناقض ذلك النموذج الماركسي⁽²⁴⁾.

بالإضافة إلى أن أعمال فيبر ونظريته عن التنظيم البيروقراطي جاءت محاولة لدحض مزاعم الماركسية القائلة بأن التنظيم الاشتراكي هو التنظيم الوحيد و الفريد الصالح للنسق الاجتماعي، والذي يساعده في مواجهة مشكلات الإنسان والحياة الاجتماعية مواجهة موضوعية وجذرية.

ويعاب كذلك على فيبر انحيازه للقومية الألمانية، حيث كان يؤمن بتقوية الدولة الألمانية، فقيمة القومية الألمانية هي القيمة الأساسية، أما القيم الأخرى فيمكن الضحية بها، فقد أخذ على عاتقه تعليم الألمان وإذكاء الروح القومية بينهم، حيث كان بيته مركزاً للحياة الفكرية في ألمانيا. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على تمسك فيبر بالقيم والمعتقدات و الأفكار الألمانية ومحاولة نشرها وطغيانها على كافة الأفكار والقيم الأخرى متخذاً من أعماله ونظرياته أداة ومساراً لترويجها وتمكينها في أوساط المجتمعات⁽²⁵⁾.

كذلك كان فيبر يعتقد في الكثير من الأفكار القبلية والأحكام التي لا تعتمد على المنطق أو العقل، كنظرته إلى أنشطة الناس على أنها مدفوعة بالمصلحة الذاتية وهي مقولات وتحليلات سوسيولوجية أكثر عمومية⁽²⁶⁾. بل انه يقر بأن هناك مجموعة من الأحكام اللاعقلية التي لا تقل صدقاً عن الأحكام العقلية ذاتها. ففي خطاب إلى إمي بمجارتين E. BUMGARTEN يقول عن

الضمير الأخلاقي " وهنا نصل إلى حدود العقل الإنساني وندخل إلى عالم جديد كلية، حيث يصدر جزء مختلف عن عقلنا أحكاما على الأشياء ويدرك كل واحد منا أن أحكامه على الرغم من عدم استنادها على العقل إلا أنها أحكام واضحة وصحيحة تماما مثلها في ذلك مثل تلك الأحكام التي يصل إليها العقل⁽²⁷⁾.

يرى هابرماس أن فيبر يحلل ببراعة الجذور الدينية و الفكرية للتحديث مبينا كيف أن الإصلاح الكالفيني ساهم بكيفية تعميم أساليب سلوك وفكر لها قابلية التوسع الرأسمالي عند الشعوب الأوروبية. حيث يجعل الرأسمالية العامل الأساس في تحديث المجتمعات الغربية⁽²⁸⁾.

خاتمة -

و قصارى القول لما قلناه سابقا، هو أن ظهور علم الاجتماع كعلم يبحث في قضايا الفرد والمجتمع بموضوعية وعقلانية لم يحرر التفكير الاجتماعي من قيود الذاتية، أو بالأحرى الإيديولوجية، حيث مهما أراد رواده الأوائل التخلص من أحكامهم المسبقة، إلا أنهم وقعوا في شيء من الانحياز لأفكارهم، أو الرد على الآخرين، أو النقد لمن يناقضهم ويعارضهم في أفكارهم. متجاوزين في ذلك قواعد المنهج العلمي في دراسة الظواهر، و المواقف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، مما يؤثر سلبا على صدق النظرية ودقتها.

قائمة المراجع:

- 1_ عبد الله العروي: مفهوم الايديولوجيا، ط5، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص 9.
- 2_ نفس المرجع، ص 10.
- 3_ Raymon Boudon: L'idéologie L'origine Des Idées Reçues, Fayard, France, 1986, p 30.
- 4_ Milton Rockeach: Belief, Attitudes And Values, Tossy-Boss, 1972, p 124.
- 5_ Corbett Patrrck: Ideologies Philosophy at Work, Hutchinson, 1965, p 12.
- 6_ نبيل محمد توفيق السمالوطي: الايديولوجيا وقضايا علم الاجتماع _ النظرية والمنهجية والتطبيقية _، دار المطبوعات الجديدة، الاسكندرية، 1989، ص 524.
- 7_ نفس المرجع: ص 524.
- 8_ وسيلة خزار: الايديولوجيا وعلم الاجتماع _ جدلية الانفصال و الاتصال _، منتدى المعارف، بيروت، 2013، ص 142.
- 9_ نفس المرجع: ص 143.
- 10_ نبيل محمد توفيق السمالوطي: مرجع سبق ذكره، ص 525.
- 11_ وسيلة خزار: مرجع سبق ذكره، ص 145.
- 12_ نبيل محمد توفيق السمالوطي، مرجع سبق ذكره، ص 527.
- 13_ وليام غي كار: أحجار على رقعة الشطرنج، ترجمة سعيد جزائري، دار النفائس د ب، 1970، ص 17.
- 14_ نفس المرجع، ص 18.
- 15_ وسيلة خزار، مرجع سبق ذكره، ص 137.
- 16_ هادي المدرسي: نقد النظرية الماركسية، ط2، دار البيان العربي، بيروت، 1988، ص 23.
- 17_ محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع _ تمديد آفاق النظرية الكلاسيكية، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2010، ص 146.
- 18_ نفس المرجع، ص 147.
- 19_ عبد الله العروي، مرجع سبق ذكره، ص 10.
- 20_ صلاح مصطفى الفوال، معالم الفكر السوسيولوجي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982، ص 114.
- 21_ نبيل محمد توفيق السمالوطي، مرجع سبق ذكره، ص 531.
- 22_ أيوب سمير: تأثيرات الايديولوجيا في علم الاجتماع، دون دن، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1983، ص 172.
- 23_ وسيلة خزار، مرجع سبق ذكره، ص 153.
- 24_ نفس المرجع، ص 153.
- 25_ نبيل محمد توفيق السمالوطي، مرجع سبق ذكره، ص 534.
- 26_ محمد عبد الكريم الحوراني، مرجع سبق ذكره، ص 137.
- 27_ نبيل محمد توفيق السمالوطي، مرجع سبق ذكره، ص 535.
- 28_ ستيفان هابر: هابرماس والسوسيولوجيا، ترجمة محمد جديدي، منشورات ضفاف، بيروت، 2012، ص 82.